الفصل السادس

مظاهر العمران

- بناء الأمصار :
  - * البصرة .
  - * الكوفة .
  - * الفسطاط .
  - * بغداد .
  - * طرز العمارة الإسلامية .
  - * الطرق التجارية .
- الفنون :
  - * الشعر .
  - * الخطابة .
  - * الموسيقى والغناء .
  - * الزخرفة والخط .

obeikandl.com

obeikandl.com

بناء الأمصار

فى عهد عمر رضى الله عنه كثرت الفتوح، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وبعدت على المسلمين الشقة، واحتاج الجند إلى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر، حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينتقص قوتهم؛ فكان لابد لهم من منازل يشتون فيها إذا شتوا، ويأوون إليها إذا رجعوا من غزوهم؛ ومن ثم وجدت الدواعى لبناء المدن وتمصير الأمصار .

البصرة [١]

البصرة أقدم المدن الإسلامية، وهى تقع عند ملتقى دجلة والفرات، وهو ما يعرف بشط العرب، وموقعها قريب من الماء والمرعى فى طرف البر إلى الريف، فيه قصباء [٢]، ودونه منافع ماء .

وكان السبب فى نزول المسلمين بها، أن سويد بن قطبة الذهلى كان يغير على العجم في ناحية الخريبة من البصرة قبل أن ينزلها المسلمون، ولما بلغ عمر رضى الله عنه خبره وما يصنع بالبصرة، رأى أن يوليها رجلا من قبله، وأن ينزلها المسلمون، ليحولوا بين أهل فارس ومن إليهم، وإمداد إخوانهم من أهل المدائن ونواحيها، فولاها عتبة بن غزوان [٣]، وقال له : «إن الحيرة قد فتحت فأت أنت ناحية البصرة، وأشغل من هناك من أهل فارس والأهواز وميسان عن إمداد إخوانهم» ، فسار إليها عتبة فى أكثر من

(١) البصرة: الأرض الغليظة. أو حجارة فيها بياض – القاموس، معجم البلدان جـ٢ ص١٩٢ .

(٢) القصب محركة كل نبات ذى أنابيب، والقصباء حماعتها أو منبتها – القاموس .

(٣) وهو من المهاجرين الأولين .

ثلاثمائة رجل، وانضم إليه سويد بن قطبة فيمن معه من بكر بن وائل، وتميم . يقول الطبرى: «فأقبل عتبة فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وضوى إليه قوم من الأعراب وأهل البوادى؛ فقدم البصرة فى خمسمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، فنزلها فى شهر ربيع الأول أو الآخر سنة أربعة عشر» (١) .

تمصير البصرة :

كتب عتبة إلى عمر يستأذنه فى تمصير البصرة وقال له: «إنه لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم» (٢) ، فكتب إليه عمر: «أن ارتد لهم منزلا قريباً من المراعى والماء، واكتب إلىَّ بصفته»، فكتب إليه: «إنى قد وجدت أرضاً كثيرة القضة (٣) ، فى طرف البر إلى الريف، ودونها منافع فيها ماء، وفيها قضباء» .

ولما وصلت الرسالة إلى عمر قال: « هذه أرض بصرة، قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب» ، وكتب إليه أن انزلها، فنزلها وبنى مسجدها من قصب، وبنى دار إمارتها دون المسجد، وبنى الناس سبع دساكر من قصب أيضاً لكثرته هناك، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب، ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو؛ فيعيدوا بناءها كما كان، وهكذا .

ولما مات عتبة ولى عمر عليها أبا موسى الأشعرى واختط الناس، وبنوا المنازل باللبن بعد أن أذن لهم عمر فى ذلك، (لأن القصب كان يحترق)، وبنى أبو موسى المسجد، ودار الإمارة باللبن والطين، وسقفها بالعشب (٤) . وقد «جعلوها خططا لقبائل أهلها؛ فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها (٥) ستين ذراعا، وجعلوا

---

(١) الطبرى جـ٣ ص ٩٠، معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٤، المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٦ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٤، معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٦؛ ويكنسون: يستترون.

(٣) القضة: الحجارة المجتمعة المتشققة، وقيل الأرض ذاتت الحصى – معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٦ ، القاموس .

(٤) معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٥) المربد كمنبر فضاء وراء البيوت يرتفق به، ومربد التمر جرينه الذى يوضع فيه بعد الجداد ليبيبس . والمربد والجرين لأهل الحجاز كالبيدر لأهل العراق لسان العرب .

عرض ماسواه من الشوارع عشرين ذراعا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أزرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم، وقبور موتاهم، وتلاصقوا فى المنازل[١].

ولما استعمل معاوية زيادا على البصرة زاد فى المسجد، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج [٢]، وبنى منارته بالحجارة؛ فصار من أحسن الأبنية، حتى قال فيه حارثة بن بدر الغُدَانى :

بنى زياد لذكر الله مصنعة [٣] من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاون أيدى الإنس ترفعها إذاً لقلنا من أعمال الشياطين

ولقد بلغ عدد مقاتلتها فى أيام زياد ثمانين ألفا، وعيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل [٤].

ونظرا لموقعها فرضة [٥] للعراق، ووسطا بين الشام وفارس، أسرع إليها العمران، واتخذها الأمويون مقرا لإمارة العراق؛ فاتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها فى إمارة خالد بن عبد الله القسرى (١٠٦ – ١٢٠ هـ) فرسخين فى فرسخين [٦] أى قريبا مما كانت عليها مساحة القاهرة إلى عهد غير بعيد .

وكانت فى أيام العباسيين ملتقى التجار، وتجارتها كانت تمتد شرقا إلى الهند والصين، وغربا إلى أقصى بلاد المغرب، وجنوبا إلى الحبشة، واشتهر أهلها بالأسفار التجارية إلى كل الجهات، حتى ضرب المثل بهم فى ذلك فقيل: « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى » (من أهل خوزستان) .

وكانت مياه البصرة مرسى مئات السفن التجارية، التى كانت تحمل أصناف التجارات منها وإليها؛ فتكاثرت ثروتها، وبنى أهلها القصور والحدائق، وأنشأوا البرك والميادين [٧].

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٠، وبذلك كان المسلمون فى طليعة من عرف تخطيط المدن.
(٢) الساج ضرب من الشجر والهندى من أحسن أنواعه .
(٣) المصنعة والمصانع الحصون – اللسان، وهذا البيت نسبه صاحب اللسان إلى البعيث .
(٤) معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٩ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٨ .
(٥) الفرضة بالضم من النهر ثلمة يستقى منها، ومن البحر محط السفن – القاموس .
(٦) معجم البلدان جـ ١ ص ١٩٩ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٤١ .
(٧) راجع تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

الكوفـــة [1]

السبب فى بنائها :

بعد أن فتح الله على المسلمين مافتح من العراق، كانت رسلهم ترد على عمر رضى الله عنه؛ فيرى فى وجوههم، وألوانهم تغيرا، فسألهم عن سر ذلك فقالوا له: وخومة البلاد؛ فكتب إلى سعد : «أنبئنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم»، فكتب إليه: «إن العرب خددهم وكفى أنوانهم وخومة المدائن ودجلة»، فكتب إليه: «إن العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان وحذيفة – وكانا رائدى الجيش – فيرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر» [2] فبعثهما سعد، فسارا مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة، وهو حصباء ورمل، وفيه ديرات ثلاث؛ قد «ارتفعت أرضه عن لبقة، وتطأطأت عن السبخة، وتوسطت الريف، وظعنت فى أنف البرية» [3] فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا، ودعوا الله أن يبارك لهم فى هذه الكوفة، وكتبا إلى سعد بالخبر؛ فأبلغه سعد عمر رضى الله عنهما؛ فأمره أن يسير بالجنود إليها، فارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ هـ [4] .

---

(١) الكوفة .. قرب الحيرة وسميت الكوفة لاستدارتها، أخذا من قول العرب رأيت كوفانا وكوفانا (بضم الكاف وفتحها) للرميلة المستديرة .. وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل، وقيل الكوفة كل رملة تخالطها حصباء، وقيل غير ذلك – معجم البلدان، القاموس، لسان العرب .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ١٤٥ - معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٧٩ ، جـ ٧ ص ٢٩٧ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٧ ط الأميرية .

(٤) الطبرى جـ ٣ ص ١٤٧

تمصيرها :

كان عمر يريد أن يقيم المسلمون فى خيامهم، لأن ذلك أجد فى حربهم، وأذكى لهم، وأهيب فى عين عدوهم؛ وأدعى إلى إحجامه عن أمريهم به .

ولما استأذنه أهل الكوفة والبصرة فى بنيان القصب لم يحب أن يخالفهم، وأذن لهم فابتنى أهلهما بالقصب، ثم إن الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة [١] ؛ فاستأذنوا عمر فى البناء باللبن، فقال: «افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات (حجرات)، ولا تطاولوا فى البنيان»، وكتب إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك، وجعل على تنزيل أهل الكوفة، والإشراف على بنائها أبو الهياج بن مالك الأسدى، وعلى تنزيل أهل البصرة والإشراف على بنائها عاصم بن الدلف أبو الجرداء .

أرسل سعد إلى أبى الهياج فأخبره بكتاب عمر فى الطرق: من «أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعا، وما يليها ثلاثين ذراعا، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبعة أذرع، ليس دون ذلك شىء، وفى القطائع ستين ذراعا» [٢] .

كان أول شىء خط بالكوفة مسجدها فاختطوه، ثم قام فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام، وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان، على أساطين رخام كانت للأكاسرة، سماؤها كأسمية المساجد الرومية، وبنوا لسعد داراً بحياله بينهما طريق منقب مائتى ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال، وبنى ذلك له روربة الفارسى من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة [٣] .

وقد اتخذ على كرم الله وجهه الكوفة مقراً لخلافته [٤]، وما زال لها شأن عند

---

(١) كان أشدهما حريقا الكوفة، فقد احترق منها ثمانون عريشا – الطبرى جـ٣ ص١٤٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ١٤٨، معجم البلدان لياقوت جـ ٧ ص ٢٩٧ .

(٤) لأن بها شيعته وأنصاره، ولخصوبة أرضها، وكثرة خيراتها، ووقوعها فى مكان متوسط بين أقاليم الدولة الإسلامية، ولأنها من وجهة نظره أصلح من غيرها فى حرب معاوية بالشام .

الشيعة إلى وقتنا هذا، وفي ولاية عبيد الله بن زياد، بنى المسجد وأنفق عليه نفقات طائلة، حتى أصبح فريداً بين مساجد زمانه، وأشاد به الشعراء؛ ومن ذلك ما قاله السيد إسماعيل الحميرى :

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد ... بمكة ظهراً أو مصلًى بيثرب
بشرق ولا غرب علمنا مكانه ... من الأرض معمراً ولا متجنب
بأبين فضلا من مصلى مبارك ... بكوفان رحب ذى أراس ومحصب[1]

ثم اتسعت الكوفة وامتد عمرانها حتى بلغت فى أوائل القرن الرابع الهجرى ستة عشر ميلا وثلثى ميل، وبنى فيها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لليمن[2] .

والتخطيط الذى وضع للكوفة ينبئ عن نظام هندسى جميل فضلا عن كونه يتلاءم مع طبيعة العرب؛ إذ لم يحجب هذا التخطيط هواء البادية عن أهلها الذين نشأوا فى بادية الجزيرة العربية؛ لكثرة المناهج واتساعها؛ فعاد إليهم نشاطهم واستردوا قوتهم .

وكان بين تمصير البصرة والكوفة ستة أشهر، والبصرة وإن نزلها المسلمون فى سنة ١٤ هـ إلا أنها لم تخطط إلا فى السنة التى خططت فيها الكوفة؛ وبذلك يمكن الجمع بين الروايات المختلفة للمؤرخين[3] .

وبتمصير المصرين: البصرة والكوفة، ارتفع شأنهما، وعظم أمرهما، وأصبح لهما شهرة عظيمة فى قيادة الجيوش، وحمل لواء العلم والأدب فى العالم الإسلامى كله .

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ٧ ص ٢٩٩ .

(٢) معجم البلدان جـ٧ ص ٢٩٧ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٦، الطبرى جـ٣ ص ٨٩ وما بعدها ، ص ١٤٧ وما بعدها – فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٨ ، التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٩ وما بعدها .

الفسطاط [١]

الفسطاط أول مدينة اختطها المسلمون فى مصر بعد الفتح الإسلامى سنة ٢١هـ، وهي تقع فى المنطقة التى فيهاجامع عمرو بمصر القديمة .

كان مكانها هو معسكر جيش المسلمين حينما حاصروا حصن بابل المعروف اليوم بدير النصارى، أو دير مارى جرجس .

ولما فتح عمرو هذا الحصن أجمع المسير إلى الإسكندرية لفتحها، فأمر بنزع فسطاطه (خيمته)، فإذا يمامة قد باضت فقال: «لقد تحزمت بجوارنا» أقروا الفسطاط حتى تنقف، وتطير أفراخها؛ فأقر فسطاطة ووكل به من يحفظه ألا يهاج» [٢] .

مضى عمرو إلى الإسكندرية، ولما فتحها كتب إلى عمر يستأذنه فى سكناها، فسأل عمر الرسول: «هل يحول بينى وبين المسلمين ماء» ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل .

فكتب إلى عمرو: «إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت» [٣] .

ترك عمرو الإسكندرية ورجع إلى موضع الفسطاط : فسميت البقعة بالفسطاط لذلك [٤] .

---

(١) الفسطاط بيت من شعر، ومجتمع أهل الكورة، حوالى مسجد جماعتهم، وفيه لغات فستاط، فساط، فستات بضم الفاء وكسرها، ويجمع على فساطيط أو فساتيط – القاموس، معجم البلدان، التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣١٠ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣١١ معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٧٩، والنقف ثقب البيضة .

(٣) المصدر السابق، الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٤) وموضع الفسطاط من أنسب الأماكن للمسلمين؛ فهى فى مكان يسهل منه الاتصال بحاضرة الخلافة، فضلا عن كونه وسطا بين شمالى البلاد وجنوبيها، وقريباً من النيل .

تنافس الناس فى المواضع التى ينزلونها، فولى عمرو على الخطط أربعة من أفاضل المسلمين هم: معاوية بن خديج، وشريك بن سمى، وعمر بنو قحزم، وجبريل بن ناشرة المعافرى، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بين القبائل (١) .

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارتها وتعلو؛ فبعد أن كانت الدور تبنى من طابق واحد أصبحت تبنى من أكثر قد تبلغ الخمسة أو تزيد، وبعد أن كانت الدار لا يسكنها إلا نفر قليل، صار يسكنها المائة بل والمائتان (٢) .

وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال، وقد تكلم المؤرخون العرب عن مساجدها، ومسالكها، وحماماتها، وأعداد ذلك بما قد يرتاب فيه بعض الناس (٣) .

وقد أشاد الشعراء بهذه المدينة الإسلامية العظيمة، التى فاقت فى كثير من نواحيها البصرة والكوفة، ومن ذلك قول الشريف العقيلى :

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

فى أبيات .

وقد ظلت الفسطاط قاعدة البلاد المصرية، ومقراً للإمارة فيها، حتى بنيت مدينة العسكر (٤) فى سنة ١٣٣ هـ ، في عهد صالح بن على العباسى، أول ولاة العباسيين، فانتقل إليها أمراء مصر .

ولما قدم صلاح الدين الأيوبى مصر سنة ٥٧٢ هـ . أمر ببناء سور على الفسطاط، والقاهرة، والقلعة التى على جبل المقطم، بلغ سبعة أميال ونصف (٥) .

جامع عمرو :

هو أول جامع أقيم فى مصر، ويعرف بالجامع العتيق، وكان موضعه جبانة، ولما نزل المسلمون فى مكانه حاز موضعه قيسبة بن كلثوم النجيبى ونزله، وحينما رجع

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٤٩ ، ٣٨٠ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) راجع معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٤ .

(٤) موضعها الآن زين العابدين والمدبح .

(٥) معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٨٤ .

المسلمون من الإسكندرية إلى هذا المكان، سأل عمرو قيسبة في منزله هذا أن يجعل مسجدا؛ فتصدق به على المسلمين [1]، فبنى في سنة ٢١ هـ، وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جلة الصحابة [2] رضوان الله عليهم، منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان طوله خمسين ذراعا في عرض ثلاثين . ثم توالت الزيادات، إلى أن كانت سنة ٢١٢ هـ، إذ أمر عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل المأمون بتوسيعه، فزيد فيه مثله، وبذلك بلغت ٥٠ / ١١٢ X ٥٠ / ١٢٠ ، وهي مساحته الحالية .

وكانت تقام فيه حلقات الدروس، بعضها للإرشاد، والآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب، فكان جامعة إسلامية ذاع ذكرها في الآفاق، وصار يقصدها الطلاب من الأقطار المختلفة .

ولما قدم مصر الإمام الشافعي سنة ١١٩ هـ ألقى دروسه في هذا الجامع، وصار قطب العلماء فيه، وظلت حلقات الدروس في ازدياد، حتى إنها بلغت ٣٣ حلقة في سنة ٣٢٦ هـ ، منها ١٥ حلقة للشافعية، ١٥ للمالكية، ٣ حلقات للأحناف .

وفي النصف الثاني من القرن نرى تلعب حلقات ١١٠ حلقة، فإذا قدرنا أن كل حلقة بها ٢٠ مستمعا كان مجموع المستمعين ٢٢٠٠ طالباً يقوم بتثقيفهم وتعليمهم أئمة الفقه والقراء، وأهل الأدب والحكمة .

وكان إلى جانب هذا دار حكم يجلس فيه الحاكم للنظر في مصالح الناس، كما كان دار قضاء يجلس فيه القاضي للفصل في الخصومات، وكان به بيت لحفظ مال المسلمين يسمى بيت المال [3] .

---

(١) الخطط للمقريزي جـ ٢ ص ٢٤٦ معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٢ .

(٢) وقال المقريزي: إنهم ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ الخطط جـ٢ ص ٢٤٦ معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٢ .

(٣) الخطط للمقريزي جـ ٢ ص ٢٥٣ ٢٥٦ ، معجم البلدان لياقوت جـ ٦ ص ٣٨١ - ٣٨٤ ، تاريخ التمدن الإسلام للأستاذ جورجي زيدان، وتاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب جـ ١ ص ٢٣ - ٣٠ .

بغـــداد [1]

بغداد هى دار السلام، وأزهى مدن الرمان بناها الخليفة المنصور لتكون حاضرة دولته ومعقل جنده، ومأمن أهله وخاصته؛ وذلك لأن الخليفة أبا العباس السفاح كان قد اختط مدينة قريبة من الكوفة وسماها الهاشمية، فلما كان زمن أبى جعفر المنصور ووقعت واقعة الراوندية [2] فيها كره سكناها لذلك، ولمجاورة أهل الكوفة؛ فإنه كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا جنده؛ فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه ويبنى فيه مدينة له ولعياله، ولأهله وجنده، وسار حتى أتى الموصل، ثم أرسل جماعة من الحكماء، وذوى اللب والعقل، وأمرهم بارتياد موضع، فاختاروا له موضع مدينته التى سميت مدينة المنصور، فذهب إلى هناك واعتبر المكان ليلا ونهارا؛ فاستطابه، وبنى به مدينته .

وبغداد فى موقع ممتاز يحقق غرض المنصور من كل الوجوه، وقد نبهه بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال: « يا أمير المؤمنين تكون على الصراة (نهر) بين دجلة مع الفرات؛ فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن الميرة تأتيك فى دجلة من ديار بكر تارة، ومن البحر والهند والصين والبصرة، وفى الفرات من الرقة والشام، وتجيئك أيضاً من خراسان، وبلاد العجم من شط تدمرا، وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو خربت القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت متوسط للبصرة، والكوفة، وواسط، والموصل، والسواد، وأنت قريب من البحر والبر والجبل » [3] ؛ فازداد المنصور جدا وحرصا على بنائها، وكاتب الأطراف بإنفاذ الصناع والفعلة، وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة، والعقل، والعلم، والأمانة، والمعرفة بالهندسة، ليتولوا قسمة المدينة وعملها، وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعد اللبن والآجر، وهو الذى اخترع عده بالقصب .

---

(١) لفظ بغداد فارسى، ومعناه بستان رجل (باغ بستان، وداد اسم رجل) ولها أسماء كثيرة، منها بغداذ بالذال، ودار السلام – راجع الفخرى ص١١٨، ١١٩، ومعجم البلدان جـ٢ ص٢٣١ .

(٢) هم قوم من أهل خرسان كانوا على رأى أبى مسلم،ويقولون بتناسخ الأرواح . فلما ظهروا أتوا قصر المنصور فطافوا حوله وتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ثم ظفر بهم – الفخرى فى الآدب السلطانية ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

وضع المنصور بيده أول لبنة وقال: «باسم الله والحمد لله، الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين»، ثم قال: ابنوا، فابتدأ بها فى سنة خمس وأربعين ومائة، وتممها فى سنة ست وأربعين ومائة، وجعلها مدورة، وجعل لها سورا عرضه من أساسه خمسين ذراعاً، ومن أعلاه عشرين ذراعا، وجعل لها أربعة أبواب [1] بين كل باب من أبوابها والباب الآخر ميل، وبجانب كل باب أبنية كبيرة لإقامة الفرق العسكرية، والأبواب الأربعة تفضى جميعاً إلى الساحة الواقعة فى المركز» وجعل قصره وجامعها فى وسطها [2]، وبنى قبتها الخضراء فوق إيوان [3] وكان علوها ثمانين ذراعا، وهى تاج بغداد ومأثرة من مآثر بنى العباس، وبلغ الخراج عليها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثين درهما [4].

وكانت بغداد جنة الدنيا، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ودار الخلافة، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، ومعدن الظرائف واللطائف، والمحاسن والطيبات، وبها أرباب الغايات فى كل فن، وآحاد الدهر فى كل نوع، هواؤها أغذى من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرق من كل نسيم، فلا غرو أن أكثر الشعراء من مدحها والإشادة بها . ومن ذلك ما قاله بعضهم :

بغداد يا دار الملوك ومجتبى ... صنوف المنى يا مستقر المنابر
ويا جنة الدنيا ويا مجتبى الغنى ... ومنبسط الآمال عند المتاجر [5]

هذا وهناك مدائن أخرى كثيرة بناها المسلمون كالقيروان وواسط، أو زادوا فى عمارتها كدمشق، والمدائن، وغرناطة وطليطلة، والإسكندرية .

* * *

---

(١) باب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وبنى على كل باب من أبوابها فى الأعلى من طاقة المعقود مجلساً يشرف منه على ما يليه من ذلك الوجه – مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) جعل قصره فى وسطها لئلا يكون أحد أقرب إليه من الآخر .

(٣) الإيوان: الصفة العظيمة كالأزج . والصفة الموضع المظلل – القاموس .

(٤) الفخرى ص ١١٨ .

(٥) معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٢ وما بعدها، مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص٢٣٢، الفخرى في الآداب السلطانية ص ١١٧ وما بعدها – تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ ف.برتولد ص٧٣ .

طرز العمارة الإسلامية

كانت الأبنية فى بلاد العرب الوسطى [١] قبل الإسلام ساذجة؛ ومكة – وهى من أهم المدن العربية – لم يكن بها من الأبنية إلا القليل، وكانت عامة الدور تبنى من طابق واحد، وباللبن، وقليل منها بالحجارة، وكانوا فى الغالب يعتمدون على الفرس والروم فى أبنيتهم .

ولما اتسعت الفتوح، وأقبلت على المسلمين، بنى الكثير منهم كطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام دورا متسعة فخمة من الحجارة والرخام فى المدينة والكوفة وغيرهما، وكلوا أمر بنائها إلى المهرة من الفرس والروم .

وقد هدم عثمان رضى الله عنه مسجد النبى ﷺ وأعاد بناءه بالحجارة والرخام، كما بنى داره الفخمة بالمدينة وشيدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر [٢] .

وهكذا أخذت العمارة عند العرب فى الترقى والفخامة، ولما استولوا على بلاد فارس والشام وغيرهما، واختلطوا بأهل هذه البلاد التى فتحوها، استفادوا من خبرتهم

---

(١) فى العصور الخالية كان فى اليمن، وفى شمالى بلاد العرب، وحوران نماذج معمارية هي آية فى الضخامة والتناسق، مما ينهض دليلا على علو الفن المعمارى وتطوره عندهم؛ فحصن غمدان فى صنعاء بلغ ارتفاعه عشرين طابقا، وبلغ ارتفاع جدران معبد مأرب تسعة أمتار ونصف هذا إلى النقوش العظيمة التى يرجع أقدمها إلى القرن العاشر ق . م، وهى نقوش يدهشنا تناسق كتابتها ووضوحها، وقد وصفها الحمدانى الجغرافى العربى بما يأخذ بلب الإنسان إذ يقول: « ترى صوراً من جميع الأشكال منقوشة عليها، من حيوانات وحشية ومفترسة .. ونسور تخفق بأجنحتها، وعقبان تفترس أرنب برية ... وقطعان من الغزال تسرع إلى شباك حتفها، وكلاب مرخية آذانها بعضها مقيد والآخر طليق، ورجل يرفع سوطه يجرى الخيول » راجع الحضارة العربية للأستاذ ى . هل ص ٩ ، ١٠ .

(٢) الكلس مادة يبنى بها من النورة وأحلاطها، والعرعر شجر السرو – القاموس، وراجع مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٣٤ ط عبد الرحمن محمد .

وسبقهم فى فن العمارة، ثم تفوقوا عليهم وبزوهم فى ذلك، واتخذوا لأنفسهم طرازا للبناء والعمارة خاصا بهم، متميزا عن الطرز الفارسى والبيزنطى، متلائماً وطبيعتهم وأحوالهم، وظلوا يوالونه بالتهذيب مرة، وبالإبداع أخرى حتى بلغ أسمى درجات الرقى والروعة، وفاق كلا من الطرازين الفارسى والبيزنطى من حيث الإتقان وجمال التنسيق، والافتتان والإبداع [١]، وقد أحدثوا فيه ما لم يكن معروفا من قبل، كالبناء الذى عرف بالحيرى، وهو البناء الذى أحدثه الخليفة المتوكل فى قصورها؛ فجعل تخطيطها على مثال تعبئة الجيوش، تشتمل على رواق فيه الصدر وهو مجلس الملك، وعلى كمَّين وهما الميمنة والميسرة لخواصه وخزائنه [٢]، وتبعه الناس فيه، وكبناء الدور عند أهل العراق التى كشفت عنها حفائر سامرا [٣] وكآيات الصناعة المدهشة الباقية إلى اليوم فى قصر الحمراء بغرناطة، وهوالذى شهد الأفرنج أنفسهم بأنه فى هندسته ونقوشه مبتدع على غير مثال سابق [٤].

وقد أجمع الباحثون على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة فى فن العمارة، هو طريقة عمل الأقبية التى تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة، وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية فى العمارة، وهى عمل الأسقف، وذلك بالطريقة نفسها التى اتبعت فى العمارة القوطية فى أوربا بعد ذلك بقرنين من الزمان [٥].

«وقد حفظت لنا التواريخ الكثير الطيب من وصف قصورهم الفخمة، وصروحهم الشاهقة، وما كان لهم فيها من إحكام الوضع وتشييد البناء، وتنميق الزخرف» [٦]، «ومساجد صنعاء تذكرنا بأشهر المبانى التى انتهى إليها فن العمارة الإسلامية» [٧].

---

(١) راجع الحضارة لإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٤) مقدمة كتاب أعلام المهندسين للمرحوم أحمد تيمور .
(٥) من مقال الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى .
(٦) مقدمة كتاب أعلام المهندسين للمرحوم أحمد تيمور .
(٧) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٦٥ .

وقد استخدمت أوربا فى العصور الوسطى كثيراً من المعماريين العرب منذ عصر شارلمان، فانتفعت من خبرتهم، وفنهم، ونبوغهم وتفوقهم فى العمارة والبناء .

مظاهر الطرز الإسلامى :

من مظاهر الطرز الإسلامى :

١- اتخاذ الأعمدة والمنحنيات والمشربيات [١] والشرفات والقباب، والمآذن والمدخل الملتوى [٢] وبعض هذه المظاهر مستوحى من بيئاتهم وأحوال معيشتهم [٣].

٢- إن المدن كانت تحاط بأسوار منيعة، ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عن الحاجة كأسور بغداد .

٣- أن تكون فى وسط المدينة ساحة متسعة بها أكبر مساجدها .

٤- إن البيوت كانت تبنى داخل ساحة الدار، وليس لها نوافذ تطل على الشارع .

٥- أن يخصص حى من أحياء المدينة لأهل حرفة يعرف باسمهم، كما أن بغضهم للنظام المركزى جعلهم يتجمعون قبائل منفصلة أينما حلوا، لكل قبيلة حيها ومنازلها، ومسجدها، وسوقها، ومقابرها، وهذا يلائم ما درجوا عليه من الحرية، واعتبر ذلك بالكوفة والفسطاط .

٦- إن اختيار موقع المدينة وتخطيطها يكون قريب الشبه من باديتهم، وأحوال معيشتهم من حيث الموقع، واتساع الخطط، وهم قد برعوا فى تخطيط المدن، وبرزوا غيرهم، كما يتجلى فى كثير من المدن التى بنوها .

---

(١) المشربيات : نوافذ سدت بستائر شبكية من الخشب .

(٢) المدخل الملتوى كان يلاحظ بصفة خاصة فى الحصون حتى يكون من بداخلها مستوراً.

(٣) يقول السيد أمير على : ومما لا شك فيه، أن الطراز المعمارى لأى شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلى لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية، وبهذا تلاحظ فى رسوم الأقواس والأعمدة، والمنائر والقباب المستعملة فى الفن المعمارى العربى تشابها قوى مع نقوش وتقلب أحواض النخيل المحببة إلى قلوب العرب - تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص١٦٩ .

٧- إن زخارفهم كانت مستمدة من المناظر الطبيعية، والأشكال الهندسية والنباتية، وتحاشوا التماثيل والصور المجسمة؛ لأنها محرمة عليهم، حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان .

٨- إن تخطيط المساجد - بعد أن ارتقى فن العمارة - كان يقوم على أربعة إيوانات مسقوفة، وعقودها محمولة على عمد من الرخام، وأكبرها إيوان المحراب، ويتوسط الإيوانات صحن مكشوف، كثيراً ما تتوسطه قبة تحتها فسقية [١] .

* * *

(١) راجع معجم البلدان، فتوح البلدان للبلاذرى، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٢٠٣ ، تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ بارتولد، ص ٦٢ - ٩٥ ، النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله، تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب.

obeikandl.com

الطرق التجارية

كان لاهتمام خلفاء المسلمين وأمرائهم بالتجارة أثر واضح فى العناية بالطرق التجارية، وحراستها، وتأمينها؛ فحفروا الآبار، وأقاموا المنائر فى المرافئ والثغور، واهتموا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحلهم من المغيرين وقرصان البحر

ومن أهم هذه الطرق :

١- الطريق البرى من بغداد إلى الصين ماراً بسمرقند وتركستان .

٢- الطريق البرى من الإسكندرية إلى بلاد المغرب .

٣- الطريق البرى من شمال أفريقيا عبر الصحراء الكبرى إلى نيجريا، والمنطقة الاستوائية الأفريقية .

٤- الطريق البحرى من البصرة إلى الهند والصين ماراً بالخليج الفارسى وبحر الهند .

٥- الطريق البرى البحرى من بغداد إلى بلاد الروس ماراً بجرجان، وبحر الخزر، ونهر الفلجا .

٦- الطريق البرى البحرى من سواحل الشام إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ماراً ببحر القلزم (١) .

وسرعان ما أصبح الكثير من المدن والمرافئ البحرية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى، وحسبنا ما ذكره المؤرخون عن البصرة وبغداد والإسكندرية .

* * *

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للاستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٠٤ .

الفنون

«لم يكن للعرب فى جاهليتهم فنون بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ فيما عدا الشعر والخطابة» ، فلما جاء الإسلام واختلطوا بغيرهم عرفوا فنونهم ونقلوها، وأفادوا منها، لكنهم لم ينقلوها كما هى، بل هذبوها، وأبدعوا فيها، كما هو شأنهم فى كل فن أو علم أخذوه عن غيرهم، حتى أصبح لهم طرز خاص بهم، وطابع متميز عن غيره، ومن أهم هذه الفنون الأصيلة والدخيلة التى أجادوها :

١- الشعر والخطابة . ٢- الموسيقى والغناء . ٣- الخط والزخرفة .

* * *

الشعر

يقول ابن خلدون : «وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية، على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا، يكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة، لا ينعطف على الآخر، ويسمونه البيت، فتلائم الطبع بالتجزئة أولا، ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها؛ فلهجوا به، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره، لأجل اختصاصه بهذا التناسب، وجعلوه ديوانا لأخبارهم، وحكمهم وشرفهم، ومحكا لقرائحهم فى إصابة المعنى وإجادة الأساليب»(١) .

والشعر عندهم ترجمان الخيال المصور لأشجان النفس وأفراحها ووقارها وطيشها، ورسول القلوب يستلهمها سر الطبيعة وجمالها؛ فتنفثه على عذبات الألسن ترنيمات موسيقية عذبة على مقاطع تتزن فى نغمها،وروى ترتاح إليه النفس، وهو كما قال شوقى .

الشعر دمع ووجدان وعاطفة يا ليت شعرى هل قلت الذى أجد

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٦٩ .

وهو فطرى فيهم يندر منهم من لا يستطيعه، فطبيعتهم شعرية. لأنهم ذوو نفوس حساسة، وشعور رقيق، وقد أغرموا به -- وحق لهم ذلك – لأنه صحيفة مفاخرهم، وسجل مناقبهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم، به يفتخرون، وبنابغيه يعتزون . لم تخل قبيلة من قبائلهم من شاعر يحمى ذمارها، ويفاخر بأمجادها، ويصور عواطفها، ويعبر عن أحاسيسها .

كانت القبيلة تزهو ويرتفع شأنها، وتهنؤها القبائل الأخرى إذا نبغ منها شاعر ينافح عنها، ويشيد بمفاخرها، وكان للشعر تأثير أى تأثير فى نفوسهم، يدل لذلك أن الشاعر بشعره قد يخفض قبيلة من القبائل أو يرفعها، فقول جرير فى بنى نمير من عامر ابن صعصعة :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

جعل كل نميرى إذا سئل عن نسبه قال : إنه عامرى، وبعكس ذلك قول الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوى بأنف الناقة الذنبا

فقد رفع بنى أنف الناقة، وجعلهم يفاخرون بقبيلتهم بعد أن كان الواحد منهم إذا سئل عن نسبه قال : قريعى (من بنى قريع) وهو نسب آخر لهم .

ولقوة تأثير الشعر على نفوسهم كان النبي صلوات الله عليه – وهو الخبير بنفوس العرب – ينصب لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه ينافح عنه .

وكان كثير من أصحاب النبى ﷺ من الشعراء المجيدين، منهم : كعب بن زهير الذى خلع عليه النبى ﷺ بردته حينما أنشده قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول (١) متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنهم النابغة الجعدى الذى أنشده قصيدته التى يقول فيها :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

---

(١) التبل الذحل والإسقام، وتبله ذهب بعقله ... والمرأة فؤاد الرجل أصبته بتبل القاموس .

فقال النبى ﷺ : « أين المظهر يا أبا ليلى » فقال : الجنة يا رسول الله . فقال : « أجل إن شاء الله » .

وهكذا كانت منزلة الشعر، وأثره فى نفوس العرب فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وقد أوجد فيه الإسلام الكثير من الأخيلة والأغراض، بما جد من شئون وأحداث لم تكن عند العرب من قبل، وكان من أهم الأغراض تحميس الجند، وحضهم على القتال؛ فكان الشعر يقوم عندهم مقام الموسيقى فى الجيوش الآن .

على أن بلاغة القرآن قد أخذت بلب العرب، وروعة أسلوبه، وسمو أهدافه، ودقة معانيه أثارت إعجابهم؛ فانصرف الكثير منهم عن قول الشعر، وامتنع عن قرضه؛ حتى إن بعضهم كان إذا سئل عن سبب امتناعه عن قول الشعر قال : « أبدلنى الله خيرا منه » وتلا سورة من القرآن .

والعرب وإن انصرفوا عنه فى أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، لكن لما لم ينزل وحى بتحريمه، واستمع إليه النبى ﷺ، وأثاب عليه، سرعان ما رجعوا إلى ديدنهم فيه حينما ظهر الإسلام، وأطمأنت العرب بالأمصار، وكان الأمويون يُفضلون كثيرا على الشعراء ويجيزونهم، ثم جاء من بعدهم العباسيون فقربوا الشعراء، وأسنوا لهم الجوائز؛ فعلت منزلة الشعر وسمت ، « وانظر ما نقله صاحب العقد فى مسامرة الرشيد للأصمعى فى باب الشعر والشعراء، تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك، والرسوخ فيه، والعناية بانتحاله، والتبصر بجيد الكلام ورديئه، وكثرة محفوظه منه » [1] .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٤٠ .

الخطابـــة

الخطابة هى الشعر المنثور الذى يحرك العواطف، ويوقظ الشعور، ويثير النفوس، وهى كالشعر تحتاج إلى الخيال والبلاغة، فالعبارة البليغة قد تقعد القوم، أو تقيمهم، بما تثيره فى نفوسهم من النخوة والعظمة .ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة، أن الغالب فى الشعراء أن يكونوا خطباء، وفى الخطباء أن يكونوا شعراء؛ فإذا غلب الشعر على أحدهم سموه شاعرا، أو الخطابة سموه خطيبا، والقبائل التى كثر فيها الخطباء هى فى الغالب القبائل التى كثر فيها الشعراء (١) .

وكان الغالب فى الخطباء أن يكونوا رؤساء القبائل وحكماءها، ومن أشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة الإيادى، وسحبان وائل الباهلى، وأكثم بن صيفى التميمى، وعمرو بن كلثوم التغلبى .

وكانت الخطابة فيهم قريحة كالشعر، على أن الشعر كان مقدما على الخطابة فى جاهليتهم، لفرط حاجتهم إليه فى تقييد مآثرهم، وتفخيم شأنهم، وتهويل أمرهم، فلما جاء الإسلام صارت الخطابة مقدمة، لأنه لم يرد فى القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد فى الشعر، ولحاجتهم إليها فى استنهاض الهمم، وإرهاب الأعداء، وجمع الكلمة، ورأب الصدع، وقد زادها الإسلام بلاغة وحكمة؛ بما كان يتوخاه الخطباء من اقتباس الآيات القرآنية، والاستفادة من أسلوب القرآن، وزادت قوة ووقعا فى النفوس، بنهضة المسلمين للحروب وانتصاراتهم الباهرة فيها؛ فازدادوا أنفة، وسمت نفوسهم؛ فسما بها ذوقهم فى البلاغة، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد والأمم، والألسنة المختلفة؛ وبذلك بلغت مبلغا لم تدانيه فيها أمة سبقتهم، أو لحقتهم، بلاغة

---

(١) راجع تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

وإيقاعا وتأثيرا، وقد كثر الخطباء فى الإسلام، وعلا ذكرهم، ومن أشهرهم: على بن أبى طالب، وزياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى .

وكانت الخطابة من شأن الخلفاء فى الجمع والأعياد والأحداث، وكان لخطبهم أثرها البالغ فى نفوس الناس، بل وفى مجرى التاريخ، كخطبة أبى بكر عقب وفاة النبى ﷺ ، وخطبته فى سقيفه بنى ساعدة . وكان الأمراء والقواد يخطبون فى الجند قبل الالتحام بالعدو؛ فيذمرونهم على القتال، ويحرصونهم على الثبات، والاستشهاد فى سبيل الله، وكثيرا ما كانت قوة العارضة، وتأثير الخطبة فى نفوس الجند سببا فى النصر، كخطبة خالد بن الوليد فى موقعة اليرموك، والمغيرة بن شعبة فى وقعة القادسية، وطارق بن زياد فى فتح الأندلس .

ويعد من قبيل الخطابة البلاغة فى المكاتبات، وقد كان الخلفاء وخصوصا فى صدر الإسلام إذا كاتبوا أميراً فى أمر تحدوا البلاغة، وأتوا بالمعجز من القول، ومن ذلك ما ينسب إلى على كرم الله وجهه من أنه ولى أميراً فظهر عجزه؛ فعزله وكتب إليه: «ولاك الاختيار، وعزلك الاختبار، فيدك فى الجواب ورجلك فى الركاب» .

* * *

الموسيقى والغناء

« الموسيقى فن رياضى يبحث فيه عن أحوال النغم من حيث الإتقان والتنافر، وأحوال الأزمنة المتخللة بين النقرات من حيث الوزن، وعدمه ليحصل معرفة كيفية تأليف اللحن .. وهو يشتمل على بحثين: البحث الأول عن أحوال النغم، والثانى عن الأزمنة؛ فالأول يسمى علم التأليف، والثانى علم الإيقاع .. والغاية والغرض منه حصول معرفة كيفية تأليف الألحان[1] » ، « والموسيقى كالشعر، هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعانى، وهى تعبر عنه بالأنغام والألحان »[2] .

« والغناء تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متفاوتة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات »[3] .

وقد تغنى الحداة من العرب فى حداء[4] إبلهم، والفتيان فى خلواتهم؛ طرداً للوحشة عن أنفسهم، ورجعوا الأصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء[5] :

فغنها وهى لك الفداء إن غناء الإبل الحداء

وما زال هذا النوع من الغناء موجوداً فى بلادنا بين من يقوم على الإبل، كذلك

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان ص ٤٩ .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٦٤ .

(٤) الحداء بالضم والمد سوق الإبل والغناء لها ـ لسان العرب .

(٥) الترنم إذا كان بالتهليل أو نوع القراءة كانوا يسمونه تغبير (بالغين المعجمة والباء الموحدة) تذكر بالغابر أى بأحوال الآخرة – مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٦٩ ، والترنم ترجيع الصوت .

كانوا يضربون بالدف، وهو نوع بدائى من الموسيقى، وقد أباحه الإسلام فى الولائم، وكان الحارث بن كلدة الثقفى – الذى كان على عهد النبى ﷺ – يضرب العود [١].

«ولما جاء الإسلام، واستولى المسلمون على ممالك الدنيا، وحازوا سلطان العجم، وغلبوهم عليه، ومالوا إلى الترف، وغلب عليهم الرفه، بما حصل لهم من غنائم الأمم، صارو إلى نضارة العيش، ورقة الحاشية، واستحلاء الفراغ، وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز، وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، فلحنوا عليها أشعارهم" وظهر بالمدينة نشيط الفارسى، وطويس، وسائب جاثر مولى عبيد الله بن جعفر؛ فسمعوا شعر العرب ولحنوه، وأجادوا فيه، وطار لهم ذكر، ثم أخذ عنهم معبد وطبقته، وابن سريح وأنظاره» [٢].

أخذ حب الموسيقى يتطور إلى شغف مفرط فى عهد «الوليد الثانى»، وأصبحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب على مشاهير المغنين والموسيقيين [٣]، وما زالت صناعة الغناء تتدرج وتزداد إتقاناً كلما قربت الدولة من الترف والقصف إلى أن اكتملت، وبلغت الغاية على يد إبراهيم بن المهدى، وإبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، وابنه حماد فى أيام بنى العباس، وبخاصة فى زمن الرشيد الذى كان أول من وضعها تحت رعايته، فارتقت فى ظله حتى أصبحت مهنة شريفة، وكان الأمراء والأميرات فى العصر العباسى يعملون على رفع شأنها، فكانت الأميرة «علية» وهى معروفة بفضلها، وورعها إحدى شهيرات عصرها فى الموسيقى، ولها ذوق سليم فى وضع الأنغام والألحان، وقد أشاد صاحب كتاب الأغانى بتآليفها، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل عنها نبوغاً وحذقاً، كما كان الخليفة الواثق عالماً بالموسيقى مشهوراً بالعزف.

وقد تعددت آلات الموسيقى، وتنوعت وكان منها الدف والطنبور والعود

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٧٠.

(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير على ص ١٧٢.

والرباب والناى والصنج والقيثار والأرغول، وكان من أشهر المغنين نشيط ومعبد، وابن سريج، وإبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، وابنه حماد، وغيرهم، ومن المغنيات جميلة، وحبابة وسلامة، وعقيلة، وغيرهن [١].

وقد ازدهرت الموسيقى بالأندلس، وكان بدء ذلك أنه كان للموصليين [٢] غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد؛ فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام أمير الأندلس فبالغ فى تكرمته، وركب للقائه، وأسنى له الجوائز والإقطاعات، وأحله من دولته وندمائه بمكان؛ فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وهو الذى زاد فى العود وتراً خامساً، واخترع مضراب العود من قوادم النسر [٣].

ولما اشتغل المسلمون بنقل العلوم الدخيلة، وترجمتها كان من بينها كتب الموسيقى اليونانية، والهندية، والفارسية؛ فتناولوها – كعادتهم – بالدرس والتهذيب، والزيادة حتى صارت فنًّا متميزاً خاصًّا بهم، وألفوا فيه المؤلفات المسهبة فضلا عما اخترعوه من الآلات، أو استنبطوه من الألحان التى لم يكن لها مثيل من قبل، كالآلة المعروفة بالقانون التى اخترعها الفارابى، والتى ظلت إلى الآن كما هى.

وكان المغنون من خيرة المثقفين، ومن أحاسن أهل الأدب، وكان للخلفاء – كما ذكرنا – عناية كبرى بالغناء والمغنين؛ يبذلون لهم الجوائز السنية، والأموال الطائلة لتجويد غنائهم وتحسينه، وقد كان راتب الموصلى ١٠,٠٠٠ درهم فى الشهر غير الصلات، وقد رأينا ما كان من حفاوة الحكم بن هشام بزرياب [٤].

---

(١) يقول ابن خلدون: «وكان الكتاب والفضلاء فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحاله قادحا فى العدالة والمروءة، وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصبهانى – وهو ما هو – كتابه فى الأغانى، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه». ص ٥٠٥، ٧٠٤، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص٢١٦، ٢٩٢، تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ ص ١٩٧.

(٢) أسرة إبراهيم الموصلى.

(٣) ابن خلدون جـ٣ ص ٩٧١، تاريخ التمدن الإسلامى ص ١٩٩.

(٤) تاريخ التمدن الإسلامى ص ١٩٨.

وقد ذكر ابن خلكان أن الفارابى حضر مجلس غناء لسيف الدولة الحمدانى ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعاب المغنين؛ فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء؟ ففتح خريطة، واستخرج تلك الآلة، وركبها، ثم لعب بها؛ فضحك منها كل من كان فى المجلس، ثم فكها، وركبها تركيبا آخر، وضرب عليها؛ فبكى كل من كان فى المجلس، ثم فكها وغير تركيبها، وضرب ضربا آخر؛ فنام كل من فى المجلس حتى البواب؛ فتركهم نياما وخرج [1] .

ومن أشهر من برع فى الموسيقى، وألف فيها الكندى (ت٨٧٣م) ، والفارابى (ت ٩٥٠م)، وعبد المؤمن (ت ١٢٩٤م) ، وقد اكتملت بهم الموسيقى العربية من الناحيتين: العلمية والنظرية، غير أن معظم مؤلفاتهم قد اندثرت، ولم يبق منها إلا القليل، كما أن معظم ما وصلوا إليه من أسرار هذا الفن قد ذهب أيضاً، والقليل الباقى رموز غامضة نجدها فى كتاب الأغانى ونحوه .

* * *

(١) ابن خلكان جـ٣ ص ٧٧ .

الزخرفة والخط

لمحة إلى تاريخ الخط :

« الخط رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس [١] » .

وليس لدينا من آثار العرب فى الحجاز ما يدل على أنهم عرفوا الكتابة إلا قبيل الإسلام لغلبة البداوة على طبائعهم، والكتابة من صنائع الحضر « على أن الذين رحلوا منهم إلى العراق أو إلى الشام قبيل الإسلام تخلقوا بأخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم ..... فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطى، أو العبرانى، أو السريانى؛ فتولد من الأول الخط النسخى (الدارج) ، ومن الثانى الخط الكوفى [٢] .

واختلفوا فى من نقل الخط الكوفى إلى بلاد العرب، والأشهر أنهم أهل الأنبار، وذلك أن بشر بن عبد الملك الكندى أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل تعلم هذا الخط من الأنبار، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، وعرفت الكتابة بها قبيل ظهور الإسلام، وفى ذلك يمن رجل من أهل دومة الجندل على قريش فيقول :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا [٣]
وأغنيتمو عن مسند الحى حمير ... وما زبرت فى الصحف أقلام حميرا

---

(١) الخط « ثانى رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة؛ إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان . وأيضا فهى تطلع على ما فى الضمائر، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم » مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٩٤٩ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان .

(٣) المرجعين السابقين، المزهر جـ ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٨ ، قصة الكتابة العربية للدكتور إبراهيم جمعة .

« والخلاصة فى كل حال أن العرب تعلموا الخط النبطى من حوران فى أثناء تجاراتهم إلى الشام، وتعلموا الخط الكوفى من العراق قبيل الإسلام بقليل، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام، والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معا: الكوفى لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية، كما كان سلفه السطر نجيلى (قلم من الخط السريانى) يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية، والنبطى لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية » (١) .

جاء الإسلام والكتابة معروفة فى الحجاز، ولكنها غير شائعة، ولم يكن يعرف الكتابة من قريش إلا بضعة عشر رجلا، أكثرهم من كبار الصحابة، ومن بينهم – كما قدمنا – عمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، وأبو عبيدة بن الجراح، والعلاء بن الحضرمى، وأبو سلمة بن عبد الأشهل، « ثم تعلم غيرهم من الصحابة، ومنهم خرج كُتَّاب الدواوين للخلفاء الراشدين، وكتاب الرسائل وكتاب القرآن، فكتبوا القرآن بالكوفى أيام الخلفاء الراشدين، وأيامهم تفرع الخط المذكور إلى أربعة أقلام، اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف، ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان فى أوائل الدولة العباسية، فزاد على قطبة، ثم زاد إسحق بن حمادة وغيره فبلغت الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلما »(٢).

وفى أيام المأمون تنافس الكتاب فى تجويد الخط فحدثت أقلام أخر، وهكذا حتى زادت « الخطوط على عشرين شكلا وكلها تعد من الخط الكوفى » .

« وأما الخط النسخى أو النبطى فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية، حتى نبغ على بن مقلة الوزير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فأدخل فى الخط المذكور تحسينا جعله على ما هو عليه الآن، وأدخله فى كتابة الدواوين، ثم تلاوه فى ذلك على بن هلال الكاتب، الشهير بابن البواب، والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان وراجع مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٤٩ وما بعدها ففيها كلام قيم .

الخط من صورة القلم الكوفى إلى صورة القلم النسخى » [١] ، ويغلب الأستاذ جورجى زيدان « أن ابن مقلة إنما جعل الخط النسخى على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف » .

الزخرفة :

تجنب المسلمون الصور المجسمة والتماثيل، وتحرجوا منها حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان، وقد دفعهم هذا الحرج إلى أن يتجهوا بميولهم الفنية نحو الزخرفة، التى لم يكن عليهم فيها حرج، ولا جناح، واستعاضوا بها عن ذلك، فأكبوا عليها، وأفتنوا فيها، وأجادوا زخرفة الزجاج، والنسيج، والكتب، والمبانى، وغيرها بالمناظر الطبيعية، والأشكال الهندسية والنباتية، التى تؤلف على نحو يجعلها جميلة تسر الخاطر، بديعة فى عين الناظر .

كذلك وجدوا لميولهم الفنية مجالا فى الخط الكوفى [٢] الذى أصبح بما دخل عليه من تحسين على يد كثير من مشاهير الخطاطين فنًّا زخرفيًّا جميلا يسر الخاطر، وهو بطبيعته صالح للزينة قابل للانسجام الرائع مع النقوش العربية، وبفضل العناية به لأغراض الزخرفة صار نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنًّا قائما بذاته، واستمر إلى يومنا هذا، وفى دور الكتب والآثار نماذج كثيرة لذلك، فيها من الروعة والإبداع ما لا يقدر قدره، وأكثر العبارات التى استعملها الفنانون العرب فى الزخرفة الخطية مستمدة من القرآن الكريم وبخاصة « البسملة »، وكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » [٣] . ولجمال هذه الزخارف وروعتها أخذها رجال الفن من المسيحيين، واستعملوها فى زخارفهم، وقد أشار الباحثون إلى أمثلة كثيرة لكتابات عربية أعجب الأوربيون بفنها الزخرفى، ونقلوها دون فهم، لتزيين القصور والكنائس؛ ومن ذلك

---

(١) المصدرين السابقين، وراجع كشف الظنون جـ ١ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٢) كان الخط الكوفى يسمى قبل الإسلام الحيرى نسبة إلى الحيرة وهى إحدى مدن العراق، وقد ابتنى المسلمون الكوفة بجوارها، ونسب الخط إليها، والغالب أنها نسبة تجويد وتحسين لا نسبة أصل؛ لأن العرب الذين استوطنوها جودوه وحسنوه .

(٣) لم يستعمل فى الزخرفة حتى القرن التاسع من الميلاد غير الخط الكوفى - راجع حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص ٥٥٦ .

كتابة عربية حول رأس السيد المسيح المصور فوق الأبواب التى أنشأها البابا أوجين الرابع (١٤٣١ – ١٤٤٧م)فى كنيسة القديس بطرس، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس، والقديس بولس [١]. وهكذا أخذ استعمال الحروف العربية والزخارف الإسلامية يزداد انتشاراً فى صناعات أوربا المسيحية . وزاد الانتشار كثرة اعتماد أوربا – إبان ازدهار الحضارة الإسلامية – على البضائع المزخرفة الواردة من البلاد العربية، كالأقمشة الحريرية، والأوانى الزخرفية، والمصابيح النحاسية مما فتح الطريق أمام الفن العربى لغزو أوربا [٢] .

* * *

(١) المصدر السابق، وراجع كتاب تراث الإسلام طبع لجنة الجامعين لنشر العلم جـ٢ ص١٨ .

(٢) من مقال للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى، وراجع الحضارة العربية للدكتور جوستاف لوبون ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

obeikandl.com